ليوناردو دافينشى

الرجل الكامل

LEONARDO DAVINCI

للدكتور أحمد موسى

— ١ —

من أزهى عصور الفن فى أوروبا عصر الرفعة الايطالية الذى اتجه فيه الفن منذ بدء القرن السادس عشر اتجاهاً مثلياً سواء فى النحت أو التصوير .

وكان الميل كله منصبا على التعبير عن المثل الأعلى فى النحت ، وكان العطش نحو الكمال الفنى بالغاً أشده ، الأمر الذى ترتب عليه اتجاه الفنانين إلى الجمع بين الجمال السامى وبين المشاهد الحية :

فعمل الفنانون العارفون على دراسة الفن الاغريقى والتبحر فيه والغوص إلى أعماقه ، مستلهمين منه الوحى ، ساعين وراء درره الفذة ، التى لولاها لما أمكن وصول الفن فى عصر الأحياء إلى ما وصل اليه ، مما يحار المشاهد فى تعليل المقدرة الهائلة التى ذهبت به إلى هذه الناحية العالية ، التى كانت ولا تزال رمزاً يتجه اليه الفنانون والعاشقون بكليتهم وبوجدانهم .

وعلى ذلك لا مناص من اعتبار عصر الرفعة عصر إحياء للفن الكلاسيكى فى جوهره ، واقتباس منه فى مظهره ، ورجوع اليه فى أساسه ، واستلهام منه فى خياله .

ويرى المشاهد لما تركه أساطين الفن فى القرن السادس عشر بإيطاليا ، أن الغاية كانت الوصول إلى أسمى وأكمل تكوين كلى ، وأرفع وأجمل مجموع إنشائى ، كما يلاحظ أن التصوير الزيتى أصبح تصويراً تاريخيا أكثر منه اجتماعيا أو منظرياً .

ولم يفز بدرجة الوصول فى القرن السادس عشر إلا ثلاثة هم : ليوناردو ، وميكيلانجلو ، ورفائيل .

واذا كنا قد تخيرنا اليوم ليوناردو دافينشى ، فان ذلك راجع الى أنه المؤسس لهذا الاتجاه العظيم . فكان بذلك النابغة الفذ ، الذى لم يدانه فى نبوغه أحد من معاصريه ، فقد جمع إلى القدرة الفنية ، الاحاطة بالهندسة والرياضة والعلوم الطبيعية والميكانيكا التطبيقية والموسيقى والشعر ، كما كان مهندساً معمارياً قديراً ومثالا ومصوراً .

١ — الماذونا فى المغارة ، متحف اللوفر

وعرف عنه أنه كان جميل الخلق جميل الطلعة نبيل الأصل ، فلا غرابة إذا أطلق عليه المؤرخون « الرجل الكامل » . كتب فى كثير من الابحاث ، وله فيها آثار جليلة ، من أهمها لتاريخ الفن كتاباه البديعان « قواعد علم التصوير » ، و « الصناعة والجمال » .

ولكن جوهر حياته ، وأعظم ما أنتج ووصل إلى الذروة فيه كان التصوير الذى اتخذه مهنة له عاش من أجله لتأدية رسالته فيه .

أما مميزاته الفنية فكانت المعرفة والمقدرة والخلق إلى أبعد حدود معانيها كلها . أما المعرفة فقد وصل فيها إلى حدود الدهشة فاحاط بالطبيعة إحاطة غريبة ، لاسيما إلمامه بطبيعة الانسان من الناحية التشريحية والفسيوجنومية ، أعنى ما يفهم من إشارات الأيدى وأوضاعها ، وما تعبر عنه كل إشارة ومايقصد بكل وضع لها ، ودرس حياة الحيوان وحياة النبات ، وأخيرا المناظر الطبيعية الشاملة لكليهما ، فضلا عن محبته العظيمة للحيوانات ، ورغبته البالغة فى مراقبتها ودراستها .

كان له الفضل فى تأسيس منهج جديد فى التصوير فجعله نابضا بالحياة ، كما خلق فيه الظل والنور الممزوجين كالدخان ، فخلا كلاهما من خطوط التحديد ، وأصبح النور مندمجاً فى الظل متداخلا فيه لايستطيع الناظر اليه أن يحدد موضع الفصل بينهما .

ووصل بتسجيله للواقع إلى أبدع ما يمكن الوصول اليه وهو المثل الأعلى فى الجمال ، وكان التكوين الكلاسيكى مذهبه ، كما كان الانسجام روح هذا المذهب .

وتوفر معنى الاستاذية فى الانشاء الموضوعى لكل لوحاته ، لعمق بحثه ، ورقة تأثره ، وبعده عن العنف التكوينى إلا فى بعض لوحاته التى أصدرها فى المرحلة الأخيرة من حياته ، فخلق بريشته شعراً منثوراً ، يذهب بالمشاهد الى استمتاع العاشق بالقرب عن معشوقه ، كما لا يحرم المعشوق من كل معانى المديح والاطراء ، فتراه يظهر أجسام النساء جميلة صحيحة منسجمة التكوين بعيدة عن التكلف أو التعمد .

ولد ليوناردو سنة ١٤٥٢ فى فيلا فينشى فى حدود مقاطعة فيرنزا (فلورنسا) ، جاء صغيرا مع أبيه بييرو دافينشى إلى فلورنسا العاصمة ، وترى تربية علية إلى أن التحق بالعمل عند اندريا فيروتشيو ، واستمر لديه حتى سافر إلى روما فى مارس سنة ١٤٨٠ ، وأقام فيها إلى يوليوسنة ١٤٨١ ثم عاد إلى فلورنسا .

على أن لوحات ليوناردو الأولى ليست معروفة كلها ، وقد أحاط بها شىء من الغموض لايمكننا من تناولها جميعها بالفحص الوصف . ولكن هذا لايمنع من أن نذكر أهم لوحتين له فى مرحلته الفنية الأولى ، وكلتاهما تمثل (التبشير) ، توجد الأولى باللوفر ومؤرخة سنة ١٤٧٠ ، والثانية بالجاليرى أو فى فيتزى بفلورنسا مؤرخة سنة ١٤٧٢ ، وفيها ترى العذراء جالسة إلى مدخل بيتها وعلى يسار اللوحة ركع ملاك يبشرها بالمسيح ، وفى مؤخر المنظر مجموعة أشجار ذات لون طبيعى جميل .

وله أيضاً جزء من لوحة معلمه فيروتشيو (تعميد المسيح) ، قام ليوناردو بتصوير الملاك عليها ، وهى محفوظة بأكاديمى فلورنسا وصورة العذراء مع الطفل (متحف ميونيخ) ١٤٧٨ ، وقيامة المسيح مع القديس ليوناردو والقديسة لوتشيا (جاليرى برلين) وصلاة الملوك الثلاثة للمسيح ، وهى صورة لهيكل كنيسة عملت لوضع الفكرة والتصميم باللون الأسمر (جاليرى الفاتيكان) . ولعل آخر صورتين للمرحلة الأولى فى خلقه الفنى هما الصورتان المتشابهتان اسما وموضوعا (الماذونا فى المغارة) ، الأولى من

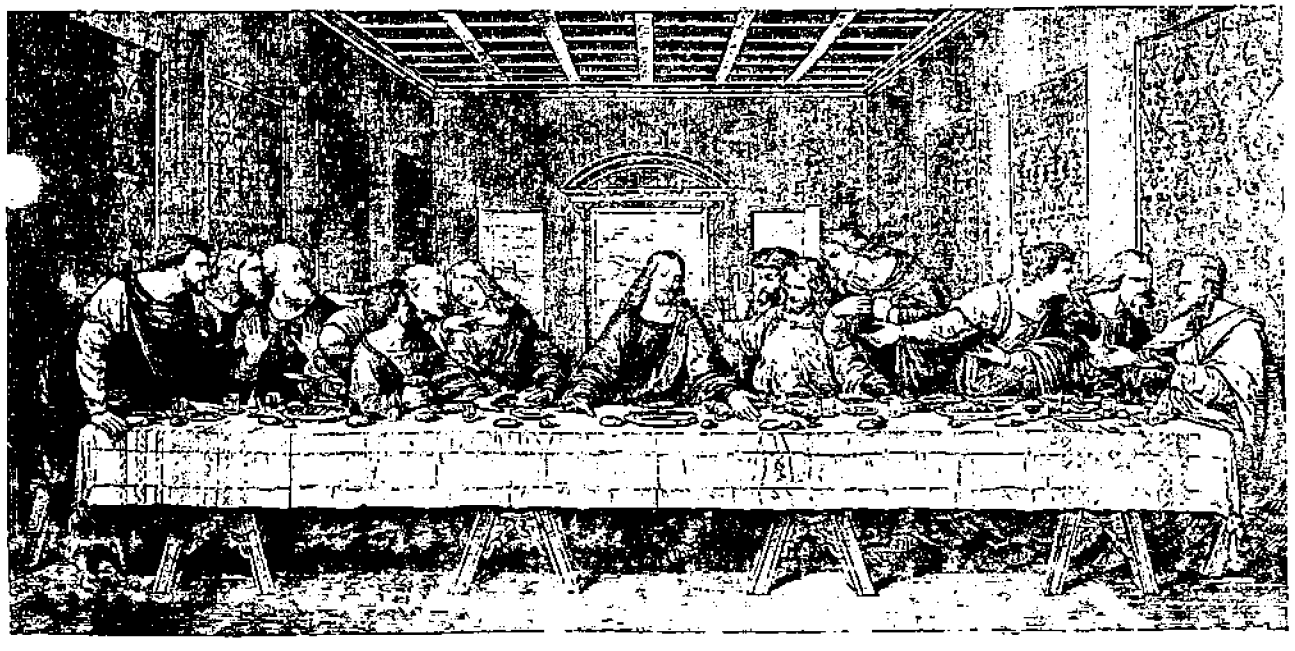

٢ — العشاء الأخير ، بميلانو — سانتا ماريا دي لاجراتسيا